

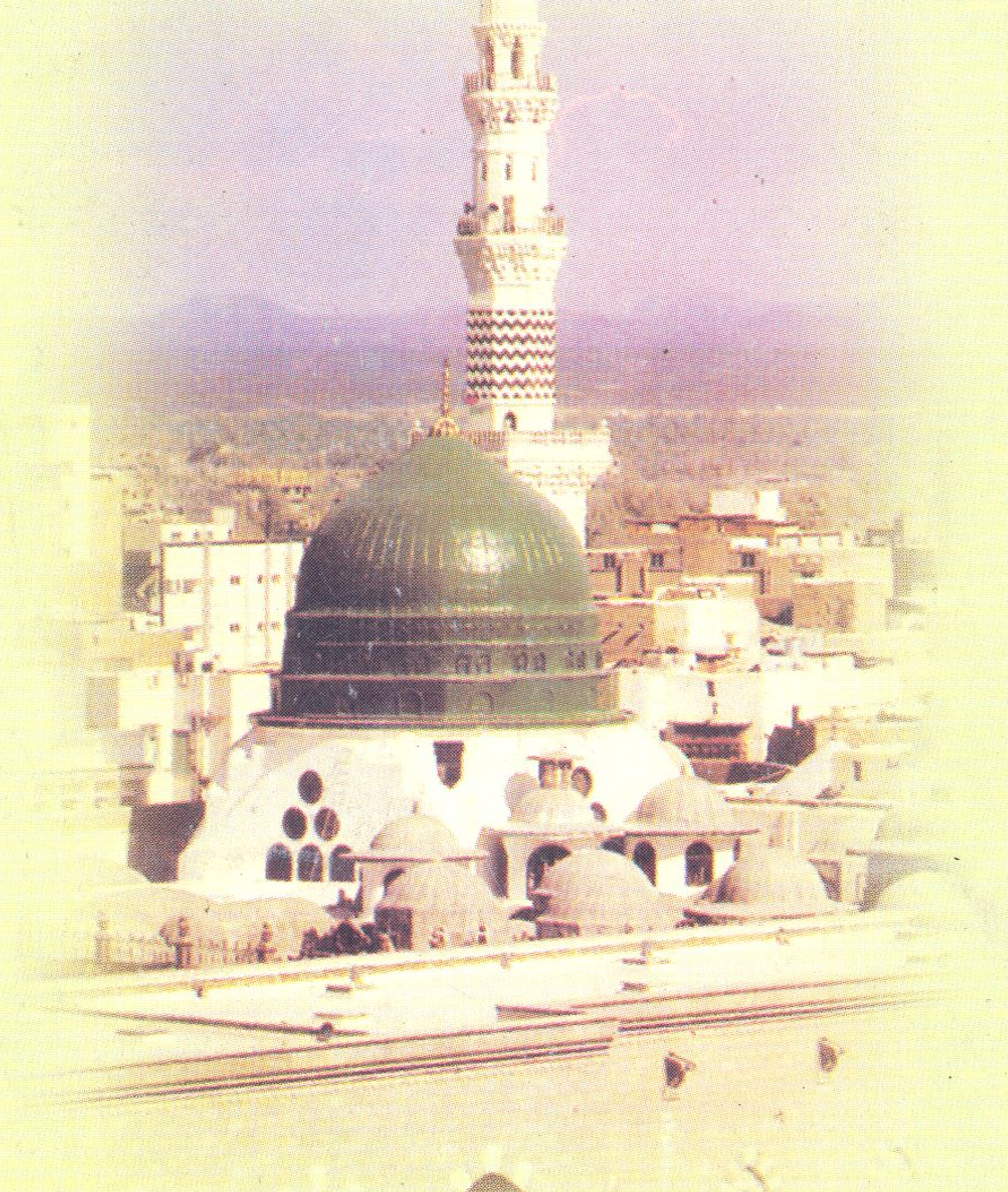
د. أحمد شلبى

من السيرة النبوية العطرة

الجزء الخامس عشر

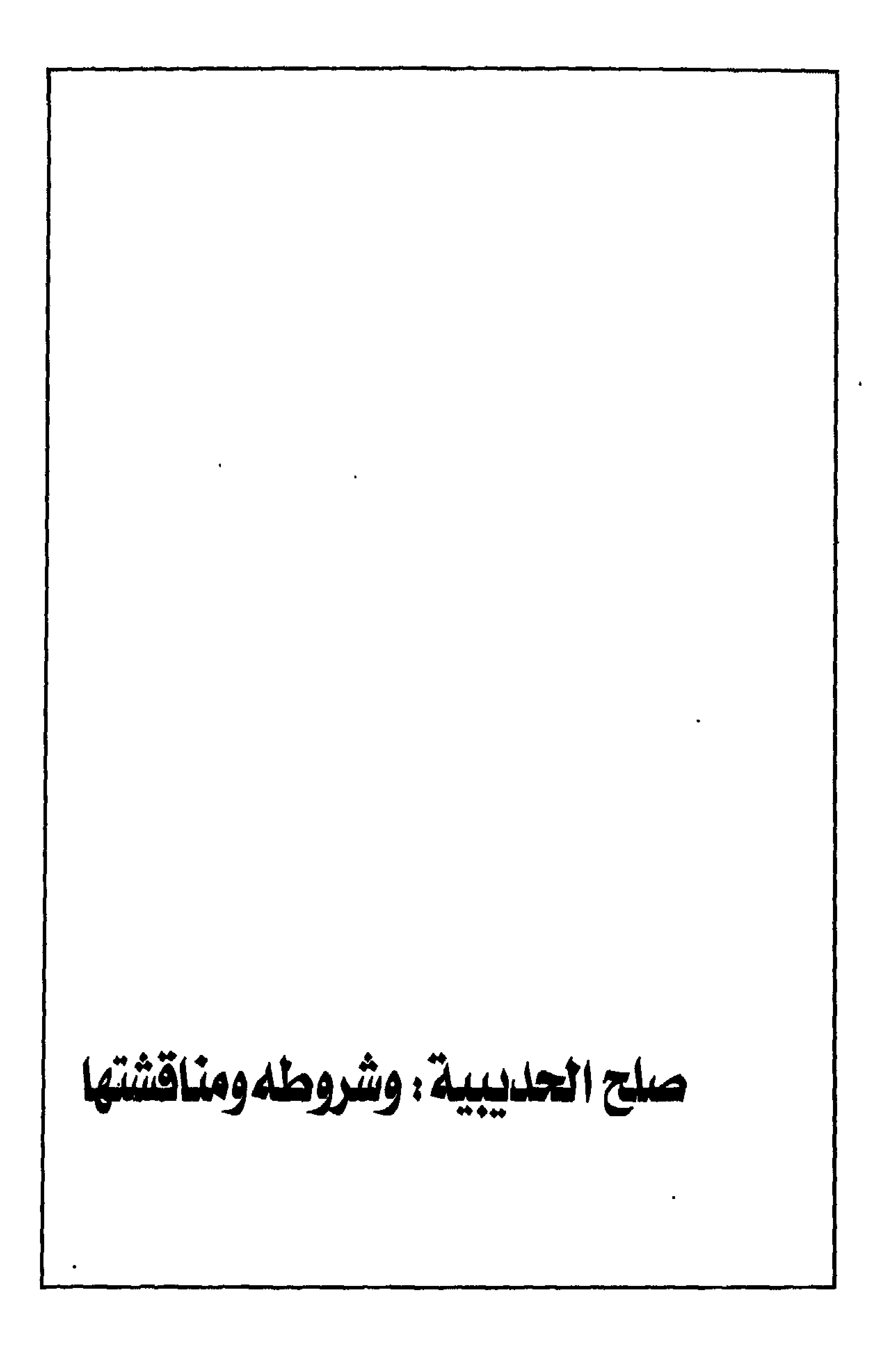
صلحُ الحدَيْبِيَة: وشروطه ومناقشتُها

الأعمال الدينية





الهيئة المصرية العامة للكتاب



صلح الحديبية: وشروطه ومناقشتها

من السيرة النبوية العطرة

(١٥)

صلح الحديبية: وشروطه ومناقشتها

- كتب الرسول للملوك والرؤساء

- غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم

د. أحمد شلبي



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١
مكتبة الأسـرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الدينية)

من السيرة النبوية العطرة (١٥)

ـ صلح الحديبية : وشروطه ومناقشتها
ـ كتب الرسول للملوك والرؤساء
ـ غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم

د. أحمد شلبى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
صبرى عبد الواحد

المشرف العام :
د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشـــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سـبيل التقـديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخًا تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

الحُدَيْبِيَةُ بين الْحَرْبِ والسِّلمِ

مقدمة :-

فى الجُزْأَيْنِ السَّابقيْنِ من المكتبةِ الإسلاميةِ تحدَّثْنا عن بعضِ غَزَوَاتِ الرسولِ ، ونُواصِلُ فى هذا الجزءِ حَدِيثَنا عن هذه الغَزَوَات :

مَرَّتْ شهورٌ بعدَ غزوةِ الأحْزَاب ، ودَخَلَتْ السنةُ السَّادِسَةُ للهجرةِ ، وسنواتٌ ستٌّ كانتْ طويلةً على المهاجرين ؛ لم يَرَوْا خِلاَلَها مَنْ تخلَّفَ بمكةَ من أهلهِمِ ، ولَم ينعمُوا برؤيةِ وطنهم ، وحُرِمُوا زيارةَ الكعبةِ التى يَحِنُّونَ إليها ، و يَتَوَجَّهُونَ من بُعْدٍ للصلاةِ نَحْوَها ؛ وأَحسَّ الرسولُ بما أحسَّ به بَاقِي المسلمينَ من شوقٍ لمَسْقَطِ الرأسِ ورغبةٍ فى زيارةِ الكعبةِ .

الشوق للبيت الحرام :

والبيتُ الحرامُ معظَّمٌ قبلَ الإسلامِ و بعدَه ؛ وهو معظَّمٌ عندَ المسلمين وعندَ قريشٍ ؛ والأشهرُ الحُرُمُ لايجوزُ فيها الحربُ ولا القِتالُ ؛ فلِمَاذا لاَ يذْهبُ المسلمون إلى مكة للعُمْرَةِ ؟ و بأيِّ حقٍّ تَمْنَعُهُم قريشٌ من دخولِ مكةَ للزيارةِ ثم العَوْدة ؟ ولْيَبْقَ العِداء بعد ذلك أو فَلْيَتَوقَّفْ ، وكانتْ هذه الأفكارُ هى شُغْلَ المسلمين الشَّاغِلَ .

رؤيا الرسول :

وفى هذه الفترةِ رَأى الرسولُ رُؤْيا تُفِيدُ أَنَّ المسلمينَ سَيدْخُلون مكةَ ؛ و بينما كانَ المسلمونَ بالمسجدِ ذَكَرَ الرسولُ للمسلمينَ خَبَرَ هذهِ الرُّؤْياَ ، فَمَاجَتْ جُمُوعُهُمْ طَرَباً ، وطَمِعُوا فى زيارةٍ سريعةٍ إلى البيتِ الحرامِ ، وسَرْعان ماأَذَّن محمدٌ فى أصحابِه بالرحيلِ إلى مَكَّةَ ؛ فَفَرِحُوا واسْتَجابُوا و بدءوا رِحْلَتَهُمْ فى شهرِ ذِى القَعْدةِ من السنةِ السادسةِ للهجرةِ ، وكانوا حَوَالَى الأَلْفِ .

رِفَاقٌ من غير المسلمين :

ودعا الرسولُ بعضَ العربِ من غيرِ المسلمينَ ليَصْحبوا المسلمينَ فِى الذَّهاب للعُمْرَةِ ؛ حتى يكونَ فى ذلك إعلانٌ

للعربِ جميعاً ولقريشٍ بوجهٍ خاصٍّ بأنَّ الرّحلةَ لا هَدَفَ لها إلاَّ العُمْرَةُ .

ملابسُ الإحرام :

ستقولُ قريشٌ إن المسلمينَ جاءوا للقتالِ ، وأنّهُمْ يدّعُون العُمْرَةَ ولا يَقْصِدُونَها ، وإذاً فَلْيُبَرْهِنْ المسلمون لقريشٍ على حُسْنِ نِيَّتِهِمْ بأنْ يَلْبَسُوا ملابسَ الإحْرَامِ قبل أن يَبْعُدوا عن المدينةِ ، ويَتْركوا آلاتِ الحربِ إلاَّ السُّيُوفَ في القُرُبِ للحِراسةِ والدّفاعِ طولَ الطّريقِ ، وساقَ المسلمونَ الهَدْىَ سبعين بَدَنَةً (ناقة) ليكونَ ذلك تأكيداً لحُسْنِ نيَّتِهم .

قريشٌ تَتَصَدّى للمسلمين :

ولكنَّ كلَّ ذلك لم تَسْتَسِيغْهُ قريشٌ . فإنَّ دخولَ المسلمينَ عليهم مَدِينَتَهُمْ تحتَ أيِّ اسمٍ من الأسماءِ هو انتصارٌ للإسلامِ وهزيمةٌ للمشركينَ، ولكنَّ رَدَّ أيِّ مُعْتَمِرٍ عَنْ أداءِ العُمْرَةِ شيءٌ مُحرَّمٌ يُعْتَبرُ عندَ العربِ اعتداءً صارخاً ، ثم إنَّ الحربَ في نِطاقِ الحرَمِ لا تَجُوزُ.

ما الحِيلةُ ؟ رَأَتْ قريشٌ أن تَرُدَّ المسلمين قبل أن يَقْرُبُوا من مكَّةَ ، وعلى هذا أرْسَلَتْ قريشٌ **خالدَ بنَ**

الوليد وعِكْرِمَةَ بنَ أبى جهل مع مجموعةٍ من الفُرْسَانِ ليصدُّوا المسلمينَ عن غايَتِهِمْ ، ولكنَّ المسلمينَ تحاشَوْا طريقَ خالدٍ وعكرمَة ، وانْدَفعُوا فى طريقٍ آخرَ قَادَهُمْ إلى الحُدَيْبيَةِ على بُعْدِ بضعةِ أميالٍ من مكةَ ، حيثُ أصْبَحَ القتالُ محظوراً ، وفى هذَا المكانِ بَرَكَتْ « القصواءُ » ناقةُ الرسولِ .

ولم يَكُنْ بهذا المكانِ ماءٌ ، فأعطَى الرسولُ رجلاً من الصحابةِ سَهْماً من السِّهام التى معه وأمَره أن يَغْرزَه فى بئرٍ من الآبارِ الجافَّةِ هناك ، فَفَعَلَ الرجلُ . وانْبَثَقَ الماءُ .

مُشْكِلَةٌ ومحاوَلَةُ حلِّها :

وبدأتْ فى الجوِّ مشكلةٌ كبرى ، إذْ لا تستطيعُ قريشٌ السَّماحَ للمسلمين بدُخولِ مكَّةَ ، ولا تَسْتَطِيع أن تحاربَهم فى هذا المكانِ الذى لا تجوزُ الحربُ فيه وأَخَذَتْ الوساطَة تَلْعَبُ دَوْرَها للعُثُورِ على حلٍّ ، فأرسلتْ قريشٌ بُدَيْل بن وَرْقَاء فى رجالٍ من خُزَاعَةَ ليتعرَّفُوا القَصْدَ الحقيقىَّ من حضورِ المسلمين ، وسَرْعانَ ماتبيَّنَ لهؤلاءِ أن المسلمين جاءوا مُعْتَمِرينَ ولا يَقْصِدُون أىَّ سوءٍ ، فَنَقَلَ بُدَيْلٌ وأصحابُه هذا

الرأىَ لقريش ، ونَصَحُوهم بأن يُخَلُّوا بين المسلمين و بينَ العُمْرةِ ، ولكنَّ قريشاً رَفَضَت قبولَ هذهِ النصيحةِ .

ثم أرسلتْ قريشٌ حلَيفِها الحُلَيسَ بن عَلْقَمَةَ لنفس الغرض ، فلما رآه الرسولُ أطْلَقَ الهَدْىَ أمامه ، وكانَ ذلك خَيْرَ ردٍّ قنعَ به الحُلَيْسُ وعادَ دونَ أن يقابلَ الرسولَ لِيؤكِّدَ لقريشٍ أن المسلمينَ يَنْوُونَ العمرةَ لا سِوَاها . وقد أغْلَظَتْ قريشٌ القولَ للحُلَيْس ورَمَاهُ بعضُ القرَشِيِّينَ بالغَفْلَةِ ، و بأنه ــ لِقِلَّةِ خِبْرتِه بشئونِ السياسَةِ ــ انْطَلَتْ عليه حيلةُ المسلمين فاكْتَفَى بُرؤْيَةِ بعضِ البُدْنِ وعادَ أدْرَاجَه ، ولكنِ الحُلَيْسَ ثَارَ لذلك . وهدَّدَ بأن الحِلْفَ الذى بينَ الأحابيشِ وقريشٍ لا يَتَّخِذُ الظلْمَ دِعامَةً له ، وأن التَّصَدِّىَ للمُعْتَمِرينَ سَيُقَابَلُ من الأحَابيشِ بالغَضَبِ والتَّحَدِّى ، ولكنَّ قريشاً اسْتَمْهَلَتْهُ لتَتأكَّدَ من أهدافِ المسلمين .

مكانةُ محمد بينَ أصحابهِ :

ثم أرسلتْ قريشٌ رجلاً عُرِفَ بالحكمةِ و بُعْد الرأى وهو عروةُ بنُ مسعودٍ الثَّقَفيُّ ، وعادَ هذا ليَصْرَخَ فى قريشٍ : إنِّى جئْتُ كِسْرَى فى مُلْكِهِ وقَيْصرَ فى جَبَرُوتِه والنَّجاشِىَّ فى أبُّهتِهِ ، وإنِّى واللهِ ما رَأيْتُ مَلِكاً يُطَاعُ فى

قومه قطُّ مِثْلَ محمدٍ فى أصحابه .. وإنَّهُمْ لن يُسْلِمُوه أبداً ، ونَصَحَ قريشاً بأن تَدَعَ المسلمينَ يَعْتَمِرُون .

الرسول يبعث السفراء :

ورأى الرسولُ أنْ يلْتَقِطَ زِمَامَ المُبَادَرة ، وأن يُرْسِلَ هو الرُّسُلَ لتَشْرَحَ لقريش رأيَ المسلمينَ : فأرْسَلَ خَرَّاشَ بن أميةَ الخُزَاعِيَّ رسولاً إلى أهلِ مكةَ فهمُّوا بقَتْله ، ولكنَّه اسْتَطَاعَ الفِرارَ بعونِ بعضِ الأحابِيشِ الذين دَافَعوا عَنْه .

فلمَّا عَادَ دَعَا الرسولُ بعُمَرَ ليَبْعَثَه ، فقالَ عُمَرُ: إنِّى أخافُهُمْ على نَفْسِى لِماَ عُرِفَ من عَدَاوتى إيَّاهُمْ ، ولكنِّى أَدُلُّك على رَجُلٍ هو أعزُّ بمكةَ منِّى وأَحَبُّ لأَهْلِها : عثمان ابنُ عفان .

فبعث الرسولُ عثمانَ ليفاوِضَ قريشاً ، وعندما دَخَلَ عثمانُ مكةَ لَقِيهُ أَبَانُ بنُ سعيد ، فأدْخَلهَ فى جِوارِه طِيلَةَ بَقَائِه بمكةَ ، ولماَّ قَابَلَ عثمانُ زعماءَ قُريشٍ شَرَحَ لهم هَدَفَ المسلمين ، فقالوُا له : إنْ شئْتَ أَنْ تَطُوفَ بالبيتِ فَلَكَ ذلك . فأجابَ عثمانُ : واللهِ ما كنتُ لأَطوفَ بالبيتِ ورسولُ اللهِ والمسلمونَ مَمْنُوعُونَ من ذلك .

بيعة الرّضوان :

وطالتْ بمكةَ غَيْبَةُ عثمانَ أكثَرَ مما توَقَّعَ المسلمون، وأُشِيعَ بينَ المسلمينَ أنّه قُتِلَ فأدركَ المسلمونَ أنّه لابُدّ مِنَ القِتَالِ، وتَمّتْ « بيعةُ الرِّضْوَانِ » التى أقْسَمَ فيها المسلمونَ على الحَرْبِ حتىَّ الموتِ أو النَّصْرِ، وقد أثْنَى اللهُ على هؤلاءِ المتَبَايِعينَ بقوله « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤْمنينَ إذْ يُبايعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَعَلِمَ مَافِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً » (سورة الفتح الآية ١٨)

وهكذا اتَّخذَ المسلمونَ السّلْمَ وسيلةً لتَحْقيقِ هَدَفهم، فَلَمَّا لَمْ يَنْفَعْ السلمُ اتَّجَهُوا للاسْتِعْدادِ للحربِ عَلَى أَعْلَى مُسْتوًى .

ولكنَّ عثمانَ سَرْعَانَ ماعادَ بَعْدَ أن نَجَحَ فى تَهْدِئَةِ قريشٍ والقضاءِ على مَخَاوِفِهِمْ، و بَعْدَ أَنْ أَلاَنَ جَانِبَهم نَحْوَ المسلمين .

المَفَاوَضَةُ :

بدأتْ بعدَ ذلك مفاوضةٌ تَرْمى لإيجادِ حلٍّ لهذه المُشْكِلَةِ، وقد ظَهَرَ واضحاً من الاتِّصالاَت والمحادثاتِ أَنَّ أَهَمَّ نُقْطةٍ تُعْنى بها قريشٌ هى عَوْدَةُ المسلمينَ هذا العامَ

دونَ أن يَقْتَحِمُوا مكةَ على سُكانها حفظاً لكَرامَتهم وخَوْفاً من أن يُعَيِّرَهُمْ العربُ بذلك .

ولما وَافَقَ الرسولُ على هذَا الْمَبْدَإِ أصبحَ من السَّهل أن تَبْدَأَ مفاوضةٌ شاملةٌ هَدَفُها وَضْعُ حدٍّ للعداء بين قريشٍ وبينَ المسلمين ، ومثَّلَ قريشاً فى هذه المُفَاوَضَاتِ وفدٌ على رأسِه سُهَيْل بن عمرو ، وتَمَّ صلحُ الحُدَيْبِيَةِ بعدَ أن أَحَاطَتْ غيومٌ كثيرةٌ بالموقفِ ، وبعد أن كانتْ الحربُ قَابَ قَوْسَيْن أو أَدْنَى .

شروط صلح الحديبية ومناقشتها :

وأُسُسُ هذا الصُّلْحِ هى :

١ ـ أنْ تَكُونَ هناك هُدْنَةٌ بين الطَّرَفينِ مُدَّتُها عشرُ سنوات .

٢ ـ يَرُدُّ المسلمونَ من يَأْتيهم من قريش مُسْلِماً بدونِ إِذْنِ وَلِيِّه .

٣ ـ لا تَرُدُّ قُرَيْشٌ من يَعُودُ لها من المسلمين .

٤ ـ مَنْ أراد أن يَدْخُلَ فى عَهْدِ قريشٍ دخل فيه ، ومن أراد أن يدخلَ فى عهدِ محمد مِنْ غيرِ قريشٍ دخل فيه .

٥ ــ ألاَّ تَتِمّ عُمْرةُ المسلمينَ هذا العامَ ، بل تُؤَجَّلْ إلى العامِ القادمِ ، و يدخلُ المسلمونَ مكَّةَ فى العامِ القادمِ بعد أن تخرجَ منها قريشٌ ، وليسَ مع المسلمينَ من السلاحِ إلا السيوفُ فى القُرُبِ ، و يبقى المسلمونَ بمكةَ ثلاثَةَ أيامٍ بلياليها

نظرةٌ فى هذه الشروط :

لقد كانَ المسلمون قريبينَ من مكَّةَ ، فَمَنَعتهم هذه الشروطُ من دُخُولها ، ولذلك تَغَلَّبتْ عليهم ــ فيما أَعْتَقِدُ ــ الناحيةُ العَاطِفِيَّةُ فاسْتَاءوُا لهذه النَّتيجَةِ ، وعَدُّوا أَنْفُسَهُم مغلوُبين أَذِلاَّءَ ، وكانتْ نُفُوسهم تَغْلِى بالأَلَمِ ، وكان عُمَرُ جريئاً كعادَتِه ، ولِذَلكَ نَجِدُه يُترجِمُ ما فى نفسِه وما فى نفوسِ المسلمينَ من ثَوَرَةٍ فى المحاورةِ التى دارتْ بينه وبينَ الرسولِ والتى نَنْقِلُ نصَّها فيما يلى :

عمر : ألستَ رسولَ الله ؟

الرسول : بلى

عمر : أولَسْنَا بالمسلمين ؟

الرسول : بلى

عمر : أو لَيْسُوا بالمشركين ؟

الرسول : بلى

عمر : فَعَلاَمَ نُعْطى الدَّنِيَّةَ فى دِيننا ؟
(أى فلماذا نقبل الظلم)

الرسول : إنِّى عَبْدُ اللهِ ورسولُه ، لَنْ أخالِفَ أمْرَه ، ولن يُضَيِّعنى .

على أن الباحثَ المُنْصِفَ يُدْرِكُ أنَّ هذه المعاهدةَ كانتْ عظيمةَ الخيرِ للمسلمين ، كبيرةَ النَّفْعِ لهم ، وكانَتْ انتقالاً مِن العُسْرِ إلى اليُسْرِ وأنَّ الرسولَ كانَ فى مُنْتَهى الحِكْمَةِ عندما قَبِلَها وعَقَدَها ، وقد دلَّتْ الأحداثُ التى ظَهَرَتْ بعد ذلك على هذه النَّتِيجةِ الطيبةِ .

مزايا شروط الصلح بالنسبة للمسلمين :

١ ـ اعترَفتْ قريشٌ فى هذه المعاهدةِ بكِيانِ المسلمين ، ولَمْ يَعُدْ محمدٌ وأصحابُه ثَائِرِينَ ، وإنَّما أصبَحوا هيئةً لها وُجودٌ ، ولها حُقُوقٌ .

٢ ـ أَعْطَتْ هذه الْهُدْنَةُ فرصةً لنشرِ الدعوةِ والتَّفَرُّغِ لتعريفِ الناسِ بها ، وعندما مَشَتْ الدَّعْوَةُ مرتبطةً باسْتِسلامِ قريش دَخَلَها الناسُ وُحْدَانًا وجَمَاعَاتٍ ، حتى

قال المؤرخون إنَّ مَنْ دخلُوا الإسلامَ من تاريخ المعاهدةِ إلى فتحِ مكةَ أىْ فى أقلَّ مِنْ سنتينِ ، أكثرُ ممَّنْ دَخَلُوا الإسلامَ فى جميعِ السِّنينَ التى سَبَقَتْ ذلك الصلحَ ، وهى حوالَىْ عشرين سنةً وقد عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ عن ذلك الصلحِ بكلمةِ « الفَتْح » فى قوله تعالى : « إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً ، لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ماتَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ و يَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيما ، و يَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عزيزا » (سورة الفتح الآيات ١ ــ ٣)

وقد نَزَلَتْ هذه الآياتُ عَقِبَ صُلْحِ الحُدَيبية ، و يقول المفسرون إن المقصودَ بالفَتْحِ هو الانتصاراتُ التى تَلَتْ هذا الصُّلْحَ وجَعَلَتْ خَلْقاً كثيرين يدخلون الإسلام .

وقد طَمْأَنَتْ هذه السورةُ جماعةَ المسلمينَ وَوَعَدَتْهُمْ بتحقيق مارَآه الرسولُ فى رُؤْياه ، قال تعالى : « لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحقِّ لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمنينَ محلِّقينَ رءوسكم ومقصِّرين لا تَخافُونَ ، فَعَلِم مالَمْ تَعْلَموا ، فَجَعلَ مِنْ دونِ ذلك فَتْحاً قَريباً »

(سورة الفتح الآية ٢٧)

٣ ــ وفى فترات النِّضَالِ بين قريش و بينَ المسلمين لم

يَتْرُكُ النضالُ للنّاسِ وقتاً للتفكيرِ، ولذلك نَرَى أنّه عندما تَمّت الهدنةُ ، وعندما أخَذَ الإسلامُ فى أثناءِ هذه الهدنةِ يَنْتَصِرُ و يَنْتَشِرُ، بدأ كثيرونَ من أبطالِ قريشٍ يُفَكِّرُونَ فى الإسلامِ ومبادِئه ، فأسْرَعُوا إلى المدينةِ مُعْلِنِينَ إسلاَمهم ، ومن هؤلاء البطلُ العظيمُ خالدُ بن الوليد وعمرُو بن العاص وعثمانُ بن طلحة ،وقد كانَ ذلك نَذِيراً باسْتِسْلام مكةَ .

٤ ــ أعْطَتْ هذه المعاهدةُ للمسلمين فُرْصَةً ليتفَرَّغُوا لليهودِ وليَتَخَلَّصُوا منهم بعدَ أن فَرّقَتْ هذه المعاهدةُ بين قريش و بينَ اليهودِ ، ولذلك غَزَا الرسولُ بعدَها خيبرَ (سنة ٧ هـ) وانتَصر كما ذكرنا فى جزءٍ سابقٍ ، و يقولُ بعضُ المفسّرِينَ إن المقصودَ بالفتحِ فى الآيةِ السابقةِ هو فَتْحُ خيْبَر وَفَدك .

٥ ــ والباحثُ المُدَقِّقُ يرى أن دخولَ المسلمين مكة للعمرةِ فى العامِ القادمِ بعد خروجِ قريشٍ منها إنما هو مَزِيدٌ من الانْتِصَارِ لا يَعْدِلُهُ أنْ يَدْخُلُوامكة والحذَرُ يملأُ قَلوبَهم ، لقد دخلوا مكةَ آمنين ، وانْطَلَقَتْ جموعُهم تَهْتِفُ بقوةٍ

وإيمان : لا إله إلاَّ اللهُ وَحْدَه ، صَدَقَ وعده ، ونَصَرَ عَبْدَه . وأعَزَّ جُنْدَه ، وهَزَمَ الأحْزَابَ وَحْدَه .

وقد رَأَتْ قريشٌ من شِعَابِ الجِبَالِ حَوْلَ مكةَ جموعَ المُسلمينَ ، وسَمِعتْ أصواتَهم التى تَحْمِلُ التَّكْبِيرَ والإيمانَ ، فاهتزَّتْ قريشٌ لِماَ رَأَتْ ، وَوَصَلَ هُتافُ المؤمنينَ إلى قلوبِ الكثيرينِ من قريش .

٦ ــ فى هذا الهُدُوءِ الذى أعْقَبَ العَاصِفَةَ خَطَا التشريعُ الإسْلاَمىُّ خُطُوَاتٍ مُبَارَكَةً ورَسَم هذا التشريعُ للمسلمينَ حَيَاتَهُم فى مُخْتَلِفِ النَّوَاحِي .

أبو بَصِير وأبو جَنْدَل :

عَدَّ بعض المسلمينَ من الانْهزَام الواضِحِ أنْ يَلْتَزموا بإعادة مَنْ يَأْتِى لهم مسلماً من قريشٍ بدونِ إِذْنِ وليِّهِ ، فِى حين لاَ تلْتزمُ قريشٌ بردِّ مَنْ يأْتِي لها من المسلمينِ ، ورأوْا فى هذا الشَّرْطِ عدَمَ تَكافُؤ وبُعْداً عن العَدَالةِ ولكنَّ الأحداثَ بَرْهَنَتْ على الخيرِ الوَفيرِ فى قبُول هذا الشرطِ . وقد وضَّحَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم مَوْقِفَهُ بقوله (إنَّ مَنْ ذَهب مِنا إليهم فأبْعَدَه اللهُ ، ومَنْ جاءنا منهم فردَدْناه فسَيَجْعَلُ اللهُ له فَرَجا ومَخْرجاً)

وَطبيعِيٌّ أنه لا خيْرَ فِيمَنْ يرتدُّ عن دِينِه و يعودُ لقريش بعدَ الإسلامِ . وما أقلَّ مَنْ فعل ذلك . وأما هؤلاء الذين جاءوا من قريش مسلمينَ وردَّهم الرسولُ ، فقد بَرْهَنَتْ الأحداثُ السريعةُ على أنَّ هؤلاء دافعوا عَنْ أنْفُسِهم وأصبحُوا خطراً على قريشٍ نفسِها ، لأنَّ الرسولَ عندما ردَّهم وفاءً بالعهد ــ والتأثرُ ظاهرٌ عليهِ ــ لم يَعُدْ هؤلاءِ إلى مكةَ وإنما عَسْكَرُوا فى طريقِ قوافلِ قريش عندَ مَوْضِعٍ يُقَالُ له « العِيص » وأخذُوا يَعْتَدُونَ على هذه القَوافِلِ اعتداءً متَّصِلاً ، وَوَصَلَ عَدَدُهُمْ إلى حوالى ثَلَثمائةٍ ، وكانَ يتَزَعَّمُهُمْ رجلٌ اشْتَهَرَ اسْمه فى هذه الأحْداثِ هو « أَبُو بصيرٍ » ، فاضْطُرَّتْ قريشٌ أن تَطْلُبَ من الرسولِ أن يَضُمَّهُم إليه .

ومع أَبِى بَصيرٍ هناك رجلٌ اشتهرَ أيضا هو « أبو جَنْدَل ابن سُهَيْلٍ ، وكانَ هذا شديداً على قريشٍ ، قَطَعَ طريقَ تجارَتِهم الساحليَّ إلى الشَّامِ ، ومن شِعْرِه فى ذلك :

أَبْلِغْ قريشاً عن أَبِى جَنْدَلِ

أنِّى بِذِى المَرْوةِ بالسَّاحِلِ

فى مَعْشَرٍ تَخْفِقُ رَايَاتُهم
بالبيض فيها والقَنَا الذّابِلِ
ليَجْعَلَ اللهُ لهمْ مَخْرَجاً
والحقُ لايُغْلَبُ بالبَاطِلَ

(فهو يقول إنه هو وجماعةٌ معه مستعدُّون لحرب قريش ، لأنَّ الحقّ لايمكنُ أن يَغْلِبَه الباطلُ)

للمسلماتِ حكمٌ آخَر:

وفى مجالِ إعادةِ مَنْ وَفَدَ مُسْلماً إلى المدينةِ حَدَثَ شئ لم يَكُنْ فى الحُسْبَان ، ذلك أَنَّهُ وَفَدَ إلى المدينةِ بعضُ النساءِ مسلمات ، فقدْ هَاجَرَتْ من مكةَ للمدينةِ **أُمُّ كُلْثُومِ بنتُ عُقْبةَ بن أبى مُعيط ، فخَرَجَ أخَواها عمارةُ والوليدُ** يطلُبانَ من الرسولِ ردَّها عملاً بنصوصِ صُلْحِ الحُدَيبية ، لكنّ الرسولَ رَأَى أن هذه النصوصَ لا تَنْطَبِقُ على النساء ، وكَيْفَ تُعَادُ زوجةٌ دَخَلتْ الإسلاَمَ لتُرْغَمَ على الحياةمع زَوَجٍ مُشْرك ؟

وسرعانَ مانَزَلَتْ فى ذلك آيةٌ كريمَةٌ قَطَعَتْ كلَّ تَرَدُّد ، وهى قولُه تعالى «يأَيُّها الذينَ آمَنُوا إذَا جاءَكم

المؤمنَاتُ مُهَاجرات فامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أعلمُ بإيمانِهنَّ ، فإنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فلا تَرْجِعُوهُنَّ إلى الكُفَّار، لاَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ، ولا هُمْ يَحِلُّون لَهُنَّ، وآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا ، ولا جُنَاحَ عَلَيْكُم أن تَنْكِحُوهُنَّ إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُن.»

(سورة الممتحنة الآية العاشرة)

فَبَيَّنَتْ هذه الآية أنَّ إسْلامَ زوجةٍ وبُقاء زَوْجِها على الشرك يَقْطَعُ عَقْدَ الزَّوْجيَّةِ ، و يُصْبحُ من حقِّ المسلمينَ أن يتزوَّجوا هذه الزوجةَ بمهرٍ جديدٍ .

من أحداث المفاوَضَة :

وكان مما أثارَ المسلمينَ أن سُهَيْلَ بن عمرو ممثِّلَ قريشٍ فى المفاوِضةِ رَفَضَ أنْ يَكْتُبَ فى عَقْدِ الصُّلْحِ : «محمدٌ رسولُ الله » وقال : لَوْ كنَّا نعترفُ أنَكَ رسولُ اللهِ ماخَالفناك ، وقد قَبِلَ الرسولُ أن يُحْذَفَ الوصفُ واكْتَفى باسْمِه ، ولكن هل غَيَّرَ هذا مِن الحقيقةِ شيئاً ؟ أَلَمْ يَسْتَمِرَّ محمدٌ رسولَ الله كما كان ؟

وهكذا كَانَ هذا الصلحُ فتحاً مُبيناً كما وَصَفَه القرآنُ الكريمُ

وممـا يذكر أن سُهيل بن عَمْرو هَذَاَ أَسْلَمَ يومَ فَتْحِ مَكَّةَ وحَسُنَ إسلامُه وكانَ من شُهَدَاء اليَرْمُوك .

أحداث الحديبية فى سورةِ الفتح :

ولنـعد إلى سورَةِ الفتحِ ، تلكَ السورةِ الكريمةِ التى نَزَلَتْ والرسولُ عـائدٌ من الحُدَيْبية ، والتى حَكَتْ بعضَ أحداث هذه الغزوةِ . وكَشَفَتْ الكثيرَ من أسرارِها ، وقد أُتِيحَ لى أنْ أشْرَحَ هـذه السورةَ فى التِليفزِ يونِ المصرىِّ ضِمْنَ ماشَرحتُ من سُور، فتَعـرَّفْتُ عـن طـريـق السُّورةِ وَدِراستـها على معلومـاتٍ لم يُورِدها أكثرُ المؤرِّخين ، وفيما يَلى لمحاتٌ مُضيئة نَقْتَبِسُهـا مـن الذِّكـر الحكيم وتَفسيرِه مما يَرْتَبِطُ بحديثِ الحديبية :

ــ وأوّلُ مـا نَـذْكُـره أن سورَةَ الفتحِ تَتْلُو فى ترتيبِ السُّوَرِ بـالمصحفِ سورةَ مُحمدٍ (تسمى أيضا سورةَ القتال) و بينَ الـسُّورَتَيْـنِ فى تـار يخ النزولِ حوالَىْ ثلاثِ سنوات ، وهى مُـدَّةٌ ليستْ بطو يلةٍ ، ومع هذا فسورةُ القتالِ طابَعَهاَ الصِّراعُ المر يرُ مـن أجلِ الحياةِ ، ثم تَبدَّلَتْ الأمورُ فى تلك السنواتِ الثلاثِ ، فلـمَّـا جاءتْ سورةُ الفتحِ اتَّضَحَ منها أن النِّعْمَةَ والبِشْرَ واليُسْرَ قد أصبحتْ طابَعَ الحياةِ عند المسلمين .

ـــ ونجيء بعدَ ذلك إلى آيات السورةِ فَنَقْتَبِسُ منها ونُعلِّقُ عليها ، قال تعالى : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فتحاً مُبيناً) وفى تَفْسِيرِ هذه الآيةِ يتَّجِهُ أكْثَرُ المفسرينَ إلى أنَّ الفتحَ هو صُلْحُ الحُدَيبيةِ الذى كانَ بعيدَ النتائجِ وكانَ فتحُ مكةَ أحدَ نَتَائجِهِ .

ـــ فى سورةِ الفتح آياتٌ ثلاثٌ (رقم ٤ ، ١٨ ، ٢٦ وسيأتى نصُّها بعد قليل) وهى تَصِفُ حالَ قريشٍ وحالَ المسلمينَ عندما تأزَّمَتْ الأمورُ وظهر شَبَحُ الحرب ، وعندما كانتْ المفاوضةُ تَدُورُ، فقد كان مُعَسْكرُ الكفَّارِ تسَيْطِرُ عليه حَمِيَّةُ الجاهليةِ وأَنَفَتُها ، تلك الحميَّةُ التى لاَ تَعْتَمِدُ على مَنْهَجٍ أو عقيدةٍ، وكانتْ جماعةُ المسلمينَ تُسَيْطرُ على قلوبهم السَّكينةُ والطُّمَأْنِينةُ ، يبايعونَ الرسولَ فى ثقةٍ وإيمانٍ ، فهُمْ يستعدُّون للحربِ والتضحيةِ بكلِّ شىء ، لكنْ فى هدوءٍ واستقرارٍ وطاعةٍ كاملةٍ للقائدِ ، وتَقوى شاملةٍ لله العلىِّ العظيمِ . وهذه الآياتُ هى :

ـــ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فى قُلُوبِ المُؤْمِنينَ ليَزْدَادُوا إيَماناً مَعَ إيمَانِهِمْ ، وللهِ جُنُودُ السَّمواتِ والأرضِ وكَانَ اللهُ عليماً حكيماً .

ـ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عن الـمُـؤْمِنَين إذْ يُبَايعُونَكَ تحتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِم ما فِي قُلُوبِهم فأنزَلَ السَّكِينَة علَيْهِمَ وأثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً .

ـ إذْ جَعَلَ الـذينَ كَفَرُوا فى قُلُوبهم الْحمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةَ فَأنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُوله وعَلَى المُؤْمنِينَ ، وألزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وَكَانُوا أحَقَّ بِهَا وأهْلَهَا وكانَ اللهُ بكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً .

لم يعد لقريش أملٌ فى النصر:

ـ وفى سورة الفتح آية كريمةٌ كَشَفَتْ أسرارَ قريش وهى قوله تعالى : (ولَوْ قَاتَلكُم الَّذيَن كَفَرُوا لَوَلَّوْا الأدْبَارَ ثمَّ لا يَجِدُونَ وليًّا ولانَصِيراً (الآية ٢٢) و يتَّضِحُ من هذه الآيةِ أنَّهُ لم يَكُنْ لدَى قريش أىُّ أمل فى النصر، وأن الانْهيارَ كان مُتَغَلْغِلاً فى أنْفُسِهِم ، ولم يَعُدْ فى طَاقَتِهم أن يُوَاجِهُوا المسلمينَ وأنْ يَصْمِدُوا أمَامهُمْ .

لماذا لم يحارِبْ المسلمونَ قريشًا فى الحديبية :

ـ وآيةٌ أخِيرَةٌ نَقْتَبِسُها من هذه السورةِ الكريمةِ توضِّح لنا السَّبَبَ فى عدم حدوث الحَرْبِ مع رُجْحَان كَفَّةِ

المسلمينَ ، وهذه الآيةُ هي قولُه تعالى : (وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَأُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذَاباً أَلِيمًا)

(الآية ٢٥)

وتَدُلُّنا هذِه الآيةُ عَلَى أنَّه كانت هناك جموعٌ من رجالِ مكةَ ونسائِها دَخَلُوا الإسلامَ سِرًّا ، ولم يَسْتَطِيعُوا أن يُعْلِنُوا إسلاَمهُم وَسَطَ عِنَاد قريشٍ وقَسْوَتِها ، ولو اشتعَلت الحربُ لكان من المُمْكن أنْ يُصَابَ هؤلاء بسوءٍ لأن المسلمينَ لم يعرِفوا خَبَرَ إسلامِهم ، ولو أَنْزَلَ بهم المسلمونَ بعضَ الأذَى ثم عَرَفُوا فيما بَعدُ خبرَ إيمانِهِم فإن المسلمينَ يُحِسُّون بالعارِ والألَمِ ، ولو تَمَيَّز هؤلاء مِنْ أولئكِ لكان من المُمْكِن أنَ تَقُوم الحربُ و يُسَلِّطَ اللهُ فيها المؤمنينَ على الكافرينَ ، وهَكَذَا شَاءَ اللهُ أنْ يُكْرِم المجموعَ من أجلِ بَعْضِ أفرادِه .



كُتُبُ الرسولِ للملوكِ والرؤساءِ ـ
واتساعُ نِطاقِ الدَّعوةِ للإسلامِ

قُلْنَا آنفاً إنَّ القضاءَ علَى شَوْكَةِ اليهودِ من جانبٍ ، ومُهَادَنَةَ قريش من جانبٍ آخَرَ فَتَحَا باباً أوْسَعَ لنشرِ الدَّعْوةِ للإسلامِ ، وقد رَأَيْنَا من قَبلُ مَرَاحِلَ الدعوة الثلاث وهي : الدَّعْوَةُ السِّرِّيَّةُ ، ودَعوَةُ بني هاشمٍ ، والدَّعوةُ العَلَنِيَّة .

عالَمية الدعوة الإسلامية :

وجاء الآن دَورُ اتساعِ الدَّعوةِ وعالَمِيَّتها تحقيقاً لقوله تعالى :

ــ تَبَارَكَ الذى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْده ليَكُونَ للْعَالَمينَ نَذيراً (سورة الفرقان الآية الأولى)

ــ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كافَّةً للناس بَشِيرًا ونَذِيرًا

(سورة سبأ الآية ١٠٨)

ولم يُضِعُ الرسولُ الوقتَ ، بلْ سرعانَ ماأرسلَ البعوثَ والكُتُبَ لرؤساء العَشَائِر والإمارَاتِ بالجزيرةِ العربيَّةِ ، وللملوك والرؤساءِ بالأقطارِ المُحِيطَةِ بالجزيرةِ ، يَدْعُوهُمَ أن يَدْخُلُوا هُمْ وأتباعُهم وشُعُوبُهم دينَ اللهِ ، ويُبَيِّنُ لهم

مَبَادىء هذا الدينِ وقواعِدَه . وقد أفاضَتْ المراجعُ العربيةُ بالحديثِ عن هذه الكُتُبِ ، فَوَرَدَ ذكْرُها في صحيحِ مسلمٍ وتحدَّثَ عنها الواقدى وأوْرَدَ أبُوعُبَيْدٍ نُصُوصَ كُتُبِ الرسولِ إلى المنْذِربن ساوى ملك البَحْرَيْن . وملكَيْ عُمَانَ ، ولحاكم اليَمن ، وإلى النَّجاشيِّ وكِسْرَى وقَيْصَرَ وأوردَ ابنُ القَيِّمِ تفاَصيلَ عنهاَ شَمَلَتْ أسماء حامِلِيها ، وما حَصَلَ لهم ، ونَتَائِجَ هذه المحاولةِ و يقولُ الخَثْعمِي السُّهَيْلى إنّ مِنَ الملوك من اتَّبَع محمداً كملوك اليمن وملكَيْ عُمَانِ ، ومنهم من هَادَنَه وأهْدَى إليه كالمقَوْقس ، ومنهم من تَعَصَّى عَليه كَملك الغَسَاسِنة وكِسْرَى فارِس ، و يقول النووى : **إنَّ حَاطبَ بن بَلْتَعَة** كان رسولَ النبيِّ عليه السلام إلى المقَوْقس ؛ وكان **دِحْيَةُ** الكلبى رسولَه إلى قَيصر ، **وعبد الله بن حُذَافة السَّهْميُّ** رسوله إلى كِسْرى ، **وعمرو بنُ أُمَّية** إلى النَّجاشيِّ ، **والعلاء بن الحضرَمِي** رسولَه إلى المنذر بن ساوى مَلِكِ البَحْرَيْن . وكان كلٌّ منهم يعرِفُ لغة الذِينَ أُرْسِل إليهم .

النسخة الأصيلة لكتاب الرسولِ إلى هرقل :

وقد شَهِدَ عام ١٩٧٧ حَدَثاً خَطيراً يتَّصلُ بهذه

الرَّسائِل ؛ إذْ أعْلَنَ الملكُ حُسَيْن مَلِكُ المملكةِ الأرْدُنيَّة الهاشِميَّةِ فى مَطلَعِ ذلك العامِ أنَّه عَثَرَ على النسخةِ الأصِيلةِ التي أرسلَها الرسولُ صلى الله عليه وسلم إلى هرقل مَلِكِ الرُّومِ ، وقال الْمَلِكُ : إنَّهُ لَمْ يُعْلِنْ ذلك إلا بَعْدَ فُحُوص ودراسات عِلْمِيَّةٍ دقيقةٍ ، قَامَ بها علماء غربيُّونَ ، وقد أثْبَتَتْ هذه الدراساتُ والتَّحالِيلُ أنَّ الوثيقةَ التى عثَرَ عليها قَدْ كُتِبَتْ على الرِّقاع التى كانَتْ مُسْتَعْمَلَةً آنذاكُ للكتابة ، وأن نَوْعَ الحِبر هو النَّوعُ الذى كآن مُسْتعْملاً ، وأن الخَطَّ والأقْلامَ هِيَ خُطُوطُ ذلك الزمانِ وأقلامُه .

وقد أوْدَعَ الملكُ حُسَيْنُ هذه الوثِيقَةَ فى مُتْحَفٍ خَاصٍّ ، و يُمْكِنُ الاطِّلاَعُ عليها .

وهذا الْكَشْفُ التَّارِيخِي الخطيرُ يَضَعُ حَدًّا لإنكار بعضِ الغربيِّين لهذه الكُتبِ والرسائل ، وُ يؤَكِّدُ صدْقَ الرِّوَايَات الإسلامِيّة حولَ هذا الموضوع .

جوانبُ الحِكمةِ فى كُتُبِ الرسولِ :

والذى يقرأ كتبَ الرسولِ إلى الملوك والرؤساء يجدها صيغَتْ بمنْتَهى الحِكْمَة والمَعْرِفَةِ ، فالرسولُ فيها سَمْحٌ يَدْعُو ولا يُهدِّد ، ولا يُقَلِّلُ من مكانة الملوكِ والرؤساءِ ، بل

يَكْتُبُ لهم بألقَابِهم ، و يعتَرِفُ بمكَانَتِهِمْ ، و يقرِّرُ أنَّ سلطانَهم فى ظلِّ الإسلامِ باقٍ لهم ، **وهوبذلك يؤكِّد أنه لَيْسَ طالبَ مُلْكٍ** ، ثم هو يذكرُ أنَّ هناكَ زكاةً فى أموالِ الأغنياءِ، ولكنَّه يؤكِّد أن الزَّكَوَاتِ والصَّدَقَاتِ لا تَحِلُّ لمحمد ولا لآل محمد ، وإنما تُؤْخَذُ من أغنياءِ المسلمينَ وتُرَدُّ على فُقَرَائِهم ، **وَهُوَ بهذا يُؤكِّدُ أنَّه ليسَ طالب مال**، وهو عليه السلامُ يُخَاطِبُ كل مَلِكٍ حَسَبَ ظُروفِه ، فإنْ كانَ مِنْ أهلِ الكتابِ أشارَ إلى مابَيْنَ الأديانِ السَّماويَّةِ من رَوَابِط ، وإن كانَ مِنْ غيرِهِم أشارَ إلى التزامِ البَشَرِيَّةِ بالعَوْدةِ إلى اللهِ وتَرْكِ عبادةِ ماسِوَاه .

و يَنْبَغِى لإيضاح ذلك أن نَقْتَبِسَ هنا بعضَ نماذجَ من هذه الرَّسَائِل :

إلى هِرَقْلِ الرُّوم :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيمِ الرُّوم :

سلامٌ على مَنِ اتَّبَعِ الهُدَى ، أما بعد ، فإنى أدْعُوكَ بدَعْوَةِ الإسلامِ ، أسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجرَكَ مرَّتَيْنِ ، فإنَ

تولّيت فعليك إثمُ جميع الأريُوسيِّين(١) « الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سَواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا اللهَ، ولا نُشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً مِنْ دونِ الله، فإنْ تولّوْا فقُولُوا اشهدُوا بأنّا مُسلِمُون »

(سورة آل عمران الآية ٦٢)

٢ ـ إلى كِسْرى الفرسِ :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسْرَى عَظِيم الفُرْس :

سلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبع الهُدَى، وآمَن باللهِ ورَسُولِه :

أدْعُوكَ بدَعْوَة اللهِ، فإنِّي رَسُولُ اللهِ إلى الناس كافَّةً، لأُنْذرَ مَنْ كَانَ حيًّا، ويَحِقَّ القولُ على الكافرين.

أَسْلِمْ تَسْلَمَ فإنْ أبيْتَ فعليكَ إثمُ كلِّ المَجُوسِ :

٣ ـ إلى أميرِ دمشق :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمدٍ رسولِ اللهِ إلى الحارثِ بنِ أبى شمر.

---

(١) نسبةٌ إلى « أرْيُوس » وهو داعيةٌ مصريٌّ مسيحيٌّ كانَ يقولُ بالتَّوحِيدِ الخالِصِ (توفى سنة ٣٢٥).

سلامٌ على من اتَّبَعَ الهُدى . وآمنَ باللهِ وصَدَّقَ برَسُوله . إنّـى أدعوكَ أن تُؤمِـنَ بـاللـهِ وحـدَهُ لا شَـرِ يـكَ لَـه ، يَـبْقَ مُلْكُكَ .

٤ ـ إلى المقوقس عظيم مصر:

بسم الله الرحمن الرحيم

مـن محـمدٍ رسولِ اللهِ إلى المقُوْقِس عظيمِ القِبْطِ . سلامٌ على مَنْ اتَّبَع الهُدَى ، أما بعدُ فإني أدْعُوكَ للإسلامِ ؛ فأَسْلِمْ تَـسْلَمْ ، وإنْ يُسلِمْ قومُكَ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مرَّتَيْنِ (قُلْ ياأَهْلَ الـكـتاب تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبيْنَكُمْ ، ألاَّ نَعْبَدَ إلاَّ اللـهَ وَلاَ نُـشْرِكَ بِـهِ شَيْئاً ؛ ولا يتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ؛ فإنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشهدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ)

(سروة آل عمران الآية ٦٤)

غزوةُ مُؤتَة
وبَدْء الصِّرَاعِ مع غَيْرِ العَرَبِ

زمن الغزوة : جُـمَـادَى الأُولى مـن الـسـنـة الـثـامـنـة للهجرةِ .

مكانها : قَـرْ يةٌ فى شمـاليّ الجز يرة العربيةِ على حدودِ الشام .

سببها :

كـانـتْ غزوةُ مُؤْتَةَ نتيجةً لكتبِ الرسولِ إلى الملوكِ والـرؤسـاءِ التى تحـدَّثْـنـاَ عنهـا آنفِاً ، فإن الرسولَ بَعَثَ كـتـابَـه إلى الـغَـسَاسنةِ مع الحارِثِ بن عُمَيْرِ الأَزْدِيِّ ، وكـان الـغـسـاسـنـةُ خـاضـعين لِـمَلِكِ الرُّومِ ، و يَرَوْنَ أنـفُـسَـهـم أقوِ ياء بَسُلطانِ الرّومِ ، فَقَتَلُوا حاملَ كتاب

الرسولِ ، وسَخِروا بِمَنْ أرْسَلَه ، وكانَ ذلك عُدْواناً يستحقّ التأديبَ من جانبٍ ، ومن جانبٍ آخَرَ فإنَّ الأوانَ كان قَدْ آنَ لتطهيرِ الجزيرةِ العربيَّةِ من الأعداءِ المُناهِضين للإسلامِ .

وأعدَّ الرسولُ لحَرْبِ الغساسنةِ جيشاً قِوامُه ثلاثةُ آلافِ مُقاتِلٍ ، ولأوَّل مَرَّةٍ لم يُعَيِّنْ الرسولُ قائداً واحدًا للجيشِ ، بل عَيَّنَ **زيدَ بن حارثةَ** أميراً للجيش وقال : **فإنْ أُصِيبَ فجَعْفَرُ بنُ أبي طالب** يُصْبحُ أميرَ الجَيشِ ، فإنْ أصِيبَ جَعْفَرٌ **فعبدُ اللهِ بنُ رُوَاحَةَ** ، وكان هذا إحَساساً من الرسولِ بصعُوبَةِ المعركةِ ، كما تَرَكَ هذا التصرُّفُ إحساساً لدى المسلمينَ بخُطورةِ الأمرِ .

مفاجأة :

وسارَ جيشُ المسلمينَ إلى الشَّمالِ ، وما إنْ وصل إلى قُرْبِ مُؤْتَةَ حتَّى فُوجِئ المسلمون بأنهم يُوَاجهُونَ جيشاً قِوامُه حوالَيْ مائةِ ألفٍ بعضُهم من الرُّومِ وبعضُهم من الغساسنةِ وممَّنْ حَضَرَ لمساعدتِهم من العربِ المحيطين بهم الذين كانُوا لايَزالون على الشركِ .

الشورى :

وجلس المسلمون للمشورة ، واتجه بعضهم إلى الكتابة للرسول بالأمر ليرشدهم إلى مايجب أن يفعلوا أو ليرسل لهم مدداً من الرجال والسلاح ، ولكن عبد الله بن رواحة صاح فى الناس قائلاً : أيها المسلمون ، والله إن التى خرجتم لطلبها هى الشهادةُ ، وما نقاتلُ الناسَ بعدد ولا قوة ولا كثرة ، فانطلقوا بنا إلى إحدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة . فقال الناسُ : صدق والله ابنُ رواحة .

سقوط القادة واختيار خالد :

وتقدم المسلمونَ و بدأت المعركةُ ، وسرعانَ ماظهرَ فيها عدمُ التكافؤ، فقُتِلَ القادةُ الثلاثةُ الواحدُ بعد الآخر، ثم آلت الرايةُ إلى خالدِ بنِ الوليدِ الذى سرعانَ ماأدركَ أنَّ الاستمرارَ فى المعركة سيُؤدِّى إلى فَنَاءِ جيش المسلمين دونَ طائل ، فرأى أن ينسحبَ بجيش المسلمين ليضمنَ النجاةَ لجيشه حتى تكونَ عُدَّةُ المسلمين أوفرَ للقاءِ الروم ومَنْ معهم .

حيلة الانسحاب :

وعندما أضمر خالدٌ هذا الرأىَ ، ومالَ له أصحابُه واجَهَ جيشَ الرومِ فى أول أيامِ قيادتِه بتَنْظِيم جديدٍ أوْحَى إلى الرومِ بأنْ وُجُوهًا جديدة انضمَّتْ لجيشِ المسلمين ، كما أمَرَ بعضَ أتباعِه أنْ يثيرُوا الغُبارَ خَلْفَ الجيشِ ليُوهِم الرومَ أن مزيداً مِن المساعدات يَنْهَالُ على جيشِ المسلمين من المدينةِ ، وفى ظلِّ هذا التصرُّف انْسَحَبَ خَالِدٌ بالجيشِ .

تعليقات على غزوة مؤتة :

وغزوة مؤتة جديرةٌ ببعضِ التَّعليقات المهمَّة :

أولا : إن هَوْلَ المعركةِ لم يكنْ بكَثْرةِ الشُّهداءِ، وإنما بالجيوش الصَّاخِبَةِ التى أعدَّها الرومُ وعَرَبُ الشمال لها ، أما الشهداء فهم أربعةَ عَشَرَ شهيداً فقط فيهم القادةُ الثلاثةُ ، و يَبْدُو أن حاملَ الرايةِ فى هذه المعركة الخطيرةِ كان يتقدَّمُ الجموعَ ، ولاَيقتصِرُ على إدارةِ المعركةِ ، ومن هنا سَقَطَ حامِلُو الرايةِ مع قِلَّةِ مَن سَقَطُوا من المسلمين ، و يُرْوَى أن جيشَ الأعداءِ سقط منه نفسُ العَدَدِ أيضا .

ثانياً : يَبْدُو للناظر فى هذه الغزوةِ أنَّ الْهَيبَةَ المشتَركَةَ هى التى مَنَعَتْ الاستمرارَ فى المعْركةِ ، وَجَعَلتْ كُلاً من

الجيشين يَقْنَعُ بالمناوَرَة والمناوَشَةِ ، فجيشُ الروم كان يعرفُ ماحقَّقَه المسلمونَ من انتصارات في الغزواتِ ضِدَّ قرَيش وضدَّ اليهودِ ، والمسلمون كانوا يعرفون قُدْرَاتِ الجيوشِ الرُّومِيَّةِ التي كانتْ قد حَقَّقَتْ حديثاً نصراً ضد الفُرْسِ ، وفي جَوِّ هذه الهَيْبَةِ المشترَكَةِ وقَفَتْ المعركة عند هذا الحدِّ .

ثالثا : لم يقْبَلْ المسلمون بالمدينةِ أن ينْسحِبَ خالدٌ بالجيشِ ، وعدُّوا ذلك فِرَاراً ، ولذلك جَعَلَ الناسُ يَصيحُون ضدَّ أفراد الجيش المُنسَحِبِ و يَصفُونَهم بأنهم فُرَّارٌ ، ويهزءونَ بهم فيَقُولُون : فَرَرْتُمْ في سبيلِ الله ، ولذلك خجلَ كثيرٌ من هؤلاء المنسحِبينَ فتوقَّفُوا عن الظهور أمامَ الناس مخافَةَ هذا الهجومِ ، فقد رَوَى ابنُ هشام أن أمَّ سَلَمَةَ زَوْجَ الرسولِ صلواتُ اللهِ عليه سَأَلَتْ زوجةَ سَلَمَةَ بن هِشامِ بن العاصِ قائلةً : مالِي لا أرَى سَلَمَةَ يحضُر الصلاَة مع رسولِ الله ؟ فأجابت : والله مايَسْتَطيعُ أن يخرُجَ ، كُلَّما خرج صَاح به الناسُ : يافُرَّارُ، فَرَرْتُم في سَبيل الله . حتى قعد في البيتِ فما يخرُج .

ولكنَّ الرسولَ صلواتُ الله عليه قدَّر الموقف ، وسمَّاهم « الكُرَّار» مُدرِكاً الأسبابَ التي جَعَلتْهم ينسحبون .

خالد يثأر:

وقد أضمر خالدٌ بن الوليد ذلك في نَفْسِه، ولذلك ثأرَ من الرُّوم في صِراعِه مَعَهُمْ إبَّانَ فَتْحِ الشَّامِ في عهد أبي بكر وعُمَرَ بنِ الخطَّابِ كما سَنَرَى في الأجزاء التاليةِ، فَغَسَلَ خالدٌ بذلك عن نفسه هَذا الوَصْفَ الذي أَطْلَقَه عليه المتُسَرِّعُونَ، وهيهاتَ لخالدِ بن الوليد أن يفِرَّ إلا عَنْ حكمةٍ وخُطَّةٍ.

رابعا: أدركَ المسلمونَ من هذه الغَزْوة أن الجولةَ الحربيَّةَ الحقيقيَّةَ ستكونُ ضدَّ الروم، وأخذُوا يُعِدُّونَ العُدَّةَ لها ليخُوضُوها في الوقتِ المناسب.

خامسا: رأيناَ الرسولَ بعدَ هزيمةِ أُحُدٍ يُسْرِعُ فيسِيرُ إلى حَمْرَاءِ الأَسَدِ ليوُهِمَ قريشاً بقُوَّةِ المسلمين، وهُوَ بَعْدَ غزوةِ موتَةَ يَفعلُ نفسَ الشَّيْءِ، فقد أرسلَ جَيْشا بقيادةِ عمرو بن العاص إلى الشمالِ، وأمدَّه بجماعةٍ فيهم أبُو بكر وعمرُ بقيادةِ أبي عبيدةَ بن الجرَّاحِ، وأوصَى الرسولُ أبا عبيدةَ بقوله: لا تَخْتَلِفاَ وقد أشَرْنَا لذلك من قبلْ، و يعلِّق أَحدُ

المؤرِّخين على إرسال هذه القوة للشمال ــ بقوله : وتقدَّمَ الجيشُ فشتَّتَ جموعَ أهل الشَّامِ الذين أرادُوا العُدْوان على المسلمينَ ، وعادتْ بذلك هَيْبَةُ المسلمينَ فى تِلْكَ النَّواحِى .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠١/١١٤٦٣

I.S.B.N 977 - 01 - 7317 - 7



♦ ♦ ♦ ♦

بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



سعر رمزى خمسون قرشا   مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب